الفصل السابع

سباق المجد والموت.. بين أمندسن وسكوت!!

- نزهة المجانين حول السفينة الحبيسة بأمر الجليد!
- علمه المغامرة.. فسبقه إلى القطب!!
- دفع حياته ثمنا لأنه لم يتعلم من خطأ ارتكبه من قبل!
- سباق الجبابرة نحو القارة العذراء!
- أصابهم الهلع عندما رأوا زملاءهم وقد تبدلت ألوانهم!
- ثلاجات الشيطان على قمم الجليد!
- أكلوا الكلاب.. فقويت عزيمتهم ووصلوا القطب!!
- تأكدوا من هلاكهم.. فالتقطوا آخر صورة تذكارية لهم!!

رحلة في ذاكرة التاريخ

تشدني المحاضرات التاريخية إليها كثيراً، ففيها عِبرَ وحسرات، عِبرَ من أولئك الذين غامروا بأرواحهم وممتلكاتهم في سبيل تحقيق مجد أو خلود لأنفسهم ولأوطانهم ولشعوبهم.. وحسرات لأنني لم أسمع من بين أولئك جميعاً واحداً من العرب والمسلمين، بل ورغم أننا في نهاية القرن العشرين، والرحلات إلى القارة القطبية الجنوبية أصبحت متعة ورفاهية،أجد من يتهكم على رحلتي هذه ويصفها بأنها مضيعة للوقت والمال!! وليت أن لهم من الإنجاز ما يُشرِف لهان الأمر، ولكنهم نِكرات في كل شيء.. العالم بأسره يتسابق على تلك القارة، ومنا من يصف ذلك بأنه سفاهة!!. لم يورث لنا السابقون مجداً نباهي به الأمم في تلك الأصقاع النائية. وها نحن نحُجِم ويملء إرادتنا وبكامل وعينا عن أن نحفظ حقاً تطالب به الأجيال القادمة، حتى ولو كان هذا الحق كتلة من جليد!!.. إننا نعلم جميعاً بأن الصراع القادم في منطقة الشرق الأوسط سيكون في معظمه حول مصادر المياه العذبة وهناك في قاع العالم معين لا ينضب من تلك المياه.. التطور التقني "التكنولوجيا"، لا يستطيع أن يوفر لنا في الوقت الحاضر مياهاً عذبة من قاع العالم، ولكن قطعاً ستكون هناك وسيلة رخيصة في المستقبل لجلب المياه من هناك.. لأن "التكنولوجيا" بيد الدول المتقدمة حاليا وهي لم توظفها في نقل المياه كما وظفتها في نقل النفط لأن عندها من المياه ما يفيض عن حاجاتها إلى درجة "الفياضانات"!!.

ولكن لو شاءت لفعلت ولو شئنا لفعلنا!!

نعود للتاريخ لنبحر في ذاكرته مرة أخرى في رحلة هي من أمتع الرحلات الإنسانية على كوكب الأرض، وهل نملك غير الذكرى والذكريات ولكنها للأسف ذكرى وذكريات غيرنا من الأمم!! نقرأها لكي نهز رؤوسنا ونمط شفاهنا.. ثم نعود لممارسة البلاهة من جديد!!

بلجيكا دخلت السباق، لم لا وهي إحدى الدول الاستعمارية التي (تخصصت) في استعمار الغابات الإفريقية على وجه الخصوص، ولكن إقتحام الغابات والبراري يختلف كثيراً عن اختراق البحار خاصة بحار المحيط الجنوبي..

بيد أن الإرادة الصلبة تذلل الصعاب، فما كان من البلجيكيين إلا أن جهزوا سفينة لصيد عجول البحر نرويجية الصنع، وأطلقوا عليها اسم "بلجيكا". وانطلقت بها بعثة من ميناء "انتورب" سنة ١٨٩٨. حيث وصلت أرض بالمر، ثم تجرأ أعضاء البعثة وانطلقوا بسفينتهم جنوباً رغم الرياح التي غيرت اتجاهها فجأة، مما جعل كتل الجليد الطافية تتجمع حول السفينة وتطبق عليها من جميع الجهات، وتقع "بلجيكا" السفينة! في مصيدة الجليد سنة كاملة! يجرفها وهي في قبضته إلى غير هدى!

حل على السفينة الشتاء بليله الكئيب المظلم الذي لا ينقشع وبرودته التي تجمد الدموع في المآقي!.. وعاش بحارتها على صيد البحر بعد أن صنعوا لهم ثقوباً في الجليد بواسطة مثاقب ضخمة كانت معهم، وأدلوا من خلال تلك الثقوب سناراتهم!.. وكانوا يلجأون إلى السفينة كلما اشتدت وطأة البرد عليهم، إلى أن أصيب ربان السفينة الكابتن "جورج ليكوانت" بانهيار بسبب سوء التغذية، وتبعه عدد آخر من البحارة، فما كان من طبيب البعثة إلا أن قام باصطياد عجول البحر وتقديم لحومها الطازجة لهم وتعريضهم لحرارة الموقد الشديدة تعويضاً لهم عن أشعة الشمس التي غابت عنهم طويلاً.. ولقد أصيب جميع البحارة بالخمول والضعف الشديد.. بل وساء الأمر على بعضهم حتى أصيبوا بالعته والجنون!

وسعوا إلى علاج هذه الأعراض الخطيرة بالمشي على أرجلهم حول السفينة المطوقة بالجليد، وأطلقوا على تلك الجولات الدائرية اسم "نزهة المجانين!!" ولم ينقذهم من

مأساتهم تلك سوى عودة الشمس ورحيل الشتاء.. وكانت فرحتهم بعودة الشمس لا توصف فكأنهم عادوا إلى حضن وطنهم الدافئ بعد ليل كئيب بارد دام شهوراً!!.

رغم أن فصل الصيف قد تجاوز نصفه، إلا أن الجليد المطبق على السفينة يأبى أن يتبدد أو يزيل، فما كان منهم إلا أن عملوا فيه المناشير لتقطيعه ولمدة ثماني ساعات في اليوم أسابيع عدة!، وما كاد هدفهم يتحقق في إيجاد فُرجة تهرب من خلالها السفينة، حتى فاجأتهم ريح عاصف سدت لهم تلك الفرجة وألقت عليهم الغمة!..إلا أن الرياح سرعان ما عادت وتبسمت لهم مرة أخرى بعد أسبوعين من غضبها عليهم، وفتحت لهم قناتهم التي أغلقتها لهم..

وانطلقوا بسفينتهم في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٩ لا يلوون على شيء.. وكانت وجهتهم شمالاً حيث الوطن بعد حبس دام أكثر من سنة... كان عدد أعضاء البعثة ثمانية عشر رجلاً، منهم طبيب البعثة الأمريكي الدكتور "فريديريك كوك" الذي زعم أنه أول من وصل إلى القطب الشمالي، وقد أتهم فيما بعد بالنصب وقضى في السجن عدة سنوات، أما أشهر أعضاء البعثة فكان المغامر والمستكشف النرويجي "روالد أمندسن" قاهر القطب الجنوبي والذي حقق إنجازاً خالداً بعد ذلك.

سباق الجبابرة نحو القارة العذراء!

ما إن عادت السفينة "بلجيكا" إلى الوطن، حتى وجد أفراد بعثتها أن السباق المحموم بين دول أوروبا على غزو أنتاركتيكا قد أسفر عن إعداد وتجهيز ثلاث حملات علمية أبحرت جميعاً سنة ١٩٠١م.

الأولى بعثة ألمانية بقيادة عالم فيزيائي هو الدكتور "أيريش درا يغالسكي" على سفينة تُدعى "جاوس"، حيث وصلت إلى نفس المناطق التي وصل إليها من قبل ويلكس وكمب ولقد وقعت السفينة في مصيدة الجليد الذي أطبق عليها من كل جانب، تماماً كما حدث من قبل للسفينة بلجيكا، مما اُضطر طاقمها إلى قضاء فصل الشتاء كله. وأخذهم الجليد الهائم مع سفينتهم نحو الجنوب إلى أراضٍ جديدة حيث وصلوا إلى بركان خامد أطلقوا عليه اسم بركان جبل جاوس نسبة إلى سفينتهم كما أطلقوا على تلك المنطقة اسم "أرض القيصر غليوم الثاني" إمبراطور ألمانيا في ذلك الوقت.

حل على العبثة الألمانية الصيف، ولا زال الجليد مُطبقاً على سفينتهم من كل جانب. فما كان من قائد البعثة الدكتور "درايغالسكي" سوى أن فكرَّ في طريقة مبتكرة في إذابة الجليد من مقدمة السفينة، وفتح قناة تبحر من خلالها، وتتخلص من حبسها الجليدي الذي قيد حريتها. وكانت طريقته هي ذر الرماد الذي امتص من حرارة الشمس ما يكفي لحفر خندق عمقه ستة أمتار!، ورغم أن السفينة تخلصت من أسرها الجليدي بفضل هذه الفكرة البارعة، إلا أنهم قد نفد منهم الفحم الذي يشعلون به مواقدهم وبه يصطلون. ولجأوا إلى فكرة جهنمية أخرى لتعويض النقص في وقود التدفئة وذلك بحرق عجول البحر والبطاريق المتلئة بالدهن (والآن يقولون لنا لا تزعجوا عجول البحر والبطاريق بالاقترَب منها ٧ – ٥ أمتار!!)

أما البعثة الثانية فكانت سويدية بقيادة عالم جيولوجي هو "أوتو نورد نسكولد" على السفينة "أنتاركتيك" والتي كانت في الأصل سفينة نرويجية لصيد الحيتان.

كان قائد البعثة قد أجرى عدة دراسات حول طبقات الأرض في منطقة "تييرا دي الفويغو" أو أرض النار التي انطلقت منها سفينتنا هذه، وكان من ضمن اهتماماته في رحلته إلى القارة القطبية أن يبحث في ما إذا كان ثمة جسر في قاع البحر يربط بين الطرف الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية، وشبه جزيرة أنتاركتيكا،ولقد وصلت البعثة في بادئ الأمر إلى جزر شتلاند الجنوبية، وقامت بمسح أراضي تلك الجزر وصححت العديد من خرائط ورسومات روس ودورفيل كما توصل قائد البعثة إلى قناعة بأن شبه جزيرة أنتاركتيكا كانت على اتصال بالجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية.

ثم توجهت السفينة بعد ذلك إلى جزيرة سنوهل أمام الساحل الشرقي لأرض بالمر حيث نزل منها قائد البعثة أوتو وخمسة من أفرادها ومعهم مئونة تكفي لمدة شهر، على أن تعود إليهم السفينة في الفصل التالي.

هلَّ على الرجال الستة فصل الصيف، ثم الشتاء وسفينتهم لم تصل بعد ونفدت مئونتهم، فأخذوا يذبحون عجول البحر والبطاريق ليتغذوا على لحومها ويتخذوا من شحومها وقوداً.

أما باقي أفراد طاقم السفينة فقد حاولوا سلوك طريق آخر للوصول إلى الرجال الستة بعد إنزال ثلاثة منهم لكي يتجهوا إلى مكان قائد البعثة ورفاقه بواسطة الزحافات.. حاول الرجال الثلاثة الوصول إلى رفاقهم، إلا أنهم فشلوا، فعادوا أدراجهم.. وأصابهم ما أصاب الرجال الستة من نفاد المئونة، فأخذوا بدورهم يقتاتون على لحوم البطاريق وعجول البحر وصيد السمك، ثم تلمسوا لهم طريقا آخر بعد أن إنقضى فصل الشتاء وحل فصل الربيع..

ومن ثم بلغوا رفاقهم بعد جهد جهيد، الذين أصابهم الفزع منهم بسبب مظهرهم الغريب بفعل الدخان الأسود الذي كان يغطى وجوههم وملابسهم.

أما السفينة فقد اصطدمت بجزيرة صخرية بفعل الجليد وتحطمت وغرقت ونجا من بقي فيها حيث تمكنوا من السير مسافة طويلة على الأقدام إلى أن وصلوا جزيرة "بوليت" حيث قضوا فصل الشتاء هناك في كوخ أقاموا لهم. ومن ثم التقطتهم سفينة أرجنتينية أوفدت خصيصاً للبحث عنهم بعد أن التقطت زملاؤهم من جزيرة "سنوهل".

رغم النكبات التي أصابت البعثة السويدية، إلا أنها عادت بحصيلة قيمة من العلوم والمعارف الجغرافية والجيولوجية.. والأهم من ذلك كله عزيمة الرجال التي لم تفتر رغم الوحشة والبرد وإنعدام الغذاء والدفء..

بداية السباق نحو القطب ..

أما البعثة الثالثة فكانت فرنسية بقيادة الطبيب الفرنسي "جون باتيست شاركو" على سفينة صممت خصيصاً لإرتياد المحيط المتجمد الجنوبي، وكانت حمولتها ٢٥٠ طناً وإقتصر نشاط البعثة على إستكشاف الشاطئ الغربي لشبه جزيرة أنتاركتيكا والاستيلاء على أرض باسم فرنسا لتكون موطئ قدم للعمليات القادمة.

بريطانيا كانت في قلب السباق، بل كان لها القدح المُعلافية، لم لا وهي في عصرها الذهبي.. الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس تحت حكم الملكة فيكتوريا أعظم من حكمها على مر العصور عقدت الأدميرالية البريطانية العزم على تسيير بعثة إلى القارة القطبية الجنوبية، وحشدت أفضل خبرائها لتصميم سفينة خاصة لتلك المهمة الصعبة وفعلاً قام الخبراء بمهمتهم خير قيام، إذ تم تصميم واحدة من أكثر السفن تطوراً في ذلك الوقت، وكانت حمولتها ٧٣٥ طناً، وأطلقوا عليها اسم ديسكفري". وحددت الأدميرالية للبعثة قائمة من الأهداف المستحيلة والتي لم تتحقق كلها حتى الآن!! منها مثلاً "تحديد القارة القطبية الجنوبية وحجمها ومساحتها ومدى اتساعها!! والتوغل في أعماقها لدراسة غطائها الجليدي وسطحها المدفون تحت الجليد، وما يحتوي عليه من بقايا الأحياء المستحجرة، ودراسة قاع المحيط وأعماقه ودرجات حرارته...!!" وتم تعيين النقيب بحري "روبرت فالكون سكوت" قائداً للحملةIO. هذا الرجل الذي ارتبط اسمه بالقارة وبالقطب الجنوبي بالذات، وانتهت حياته وحياة رفاقه نهاية مروعة وسط جليد القارة بعد ذلك!

غادرت الحملة بريطانيا في أغسطس سنة ١٩٠١م، ووصلت جزيرة روس حيث أقام سكوت مخيمة عند "هت بوينت"، وهو عبارة عن رأس صخري في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة بالقرب من بركان "إيريبوس" الذي اكتشفه مواطنه روس قبل ذلك..

في التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٠٢م، اكتشف سكوت أرضاً جديدة أطلق عليها اسم "أرض إدوارد السابع" ، وفي اليوم الرابع من فبراير، نزل العالم الفيزيائي "لويس برناتشي" والملازم "أرميتيج" إلى البر، بينما طار سكوت في منطاد مقيد للتعرف على تضاريس المنطقة من عل.

في الثاني من نوفمبر سنة ١٩٠٢م، خرج سكوت يرافقه "شاكلتون" أحد رواد القطب الجنوبي العظام، والطبيب الجراح "إدوارد ويلسون" في ثلاث زحافات يجرها ١٩ كلباً في رحلة استكشافية صوب الجنوب وسط صحارى جليدية قاحلة دامت ٥٩ يوماً، ابتعدوا خلالها عن قاعدتهم حوالي ٣٨٠ ميلاً، أي أكثر من ٦٠٠ كيلو متر حيث وصلوا خط عرض ١٧ ٨٢° جنوبا، وهي أقصى نقطة يصلها إنسان نحو الجنوب في ذلك الوقت.

ثم عادوا أدراجهم بعد أن أصابهم مرض الإسقربوط، وتقرحت أقدامهم ونفقت كلابهم جميعاً، مما اضطرهم إلى جر زحافاتهم بأنفسهم، ومما زاد الطين (أو الجليد) بلة، سقوط شاكلتون إعياء، فأضطر زميلاه إلى حمله، وأسعفتهما رياح الجنوب حيث إتخذا من خيمتهم شراعاً لزحافتهم. ووصل الجميع إلى منطقة ماك موردو، فوجدوا سفينة تدعى "مورننغ" أخذت شاكلتون معها إلى أرض الوطن.

أما رجال البعثة الآخرون. فقد قام بعضهم بقيادة الضابط البحري "أرميتاج" الرجل الثاني في البعثة بعد سكوت، بجولات استطلاعية حيث اكتشفوا نهراً جليدياً يمتد إلى داخل القارة، وأخذوا يتتبعونه فوجدوا أنه يمتد حتى أعلى الجبال الصخرية المغطاة بالجليد، والتي ترتفع ارتفاعاً مهولاً، ثم أقفلوا عائدين إلى مخيمهم.

قاد سكوت في الموسم التالي رجاله بعد عودته إليهم في جولة أخرى تتبعوا خلالها النهر الجليدي الذي اكتشفه "أرميتاج" ورفاقه، ولقد أطلق عليه سكوت اسم "نهر فيرار

الجليدي" على اسم أحد علماء البعثة، ولقد توغل سكوت ورجاله مسافة ٣٢٢ كيلو متراً إلى ما وراء قاعدتهم ولمدة سبعة عشر يوماً. وعند عودتهم عرجوا على واد يمتد بمحاذاة نهر فيرار الجليدي. ولقد دهشوا عندما وجدوا الوادي عبارة عن نهر جليدي آخر ينتهي في مصبه على جروف صخرية خالية من الثلج. وكان منظر النهر المتجمد وهو معلق فوق الصخور من المناظر العجيبة الأخاذة التي لم يروا لها من قبل مثيلاً!.

شاكلتون يتحدي سكوت!

عـاد سـكوت إلى بريطانيـا دون أن تحقـق بعثتـه الأهـداف المسـتحيلة الـتي كانـت مرسومة لها، رغم التكاليف الباهظة التي تكبدتها، ولقد وجد سكوت بعد عودته أن السباق كـان محتـدماً مـا بـين المغـامرين حـول الوصـول إلى القطـب الشـمالي، كمـا كـان محتـدما للوصول إلى القطب الجنوبي.

استطاع "أرنست هنري شاكلتون" أحد مساعدي سكوت في رحلته الأولى والذي عاد إلى وطنه نتيجة لإصابته بداء المفاصل والإسقربوط، تمويل بعثة يقودها هو شخصياً لإكتشاف القطبين الجنوبيين الجغرافي والمغناطيسي، وذلك بالإستدانة من أصدقائه تماماً كما فعل كاتب هذه السطور في رحلته هذه! ولقد أرسل شاكلتون تفاصيل خطته إلى جريدة "التـايمس" اللندنيـة في أبريـل سـنة ١٩٠٧م، ولقـد أثـار حفيظـة سـكوت رئيسـه في البعثـة السابقة الذي بادر بالرد عليه متحدياً بأنه، أي سكوت سوف يقوم برحلة أخرى للوصول إلى القطب وأنه لن يسمح لشاكلتون باستخدام القاعدة التي أقامها في "هت بوينت".

كانت خطة شاكلتون الأصلية تقضي بأن ينطلق من "هت بوينت" هو ورفاقه في ثلاث فرق على زحافات، الأولى تتجه شرقاً إلى أرض الملك إدوارد السابع التي اكتشفتها بعثة سكوت الأولى، والثانية تتجه غرباً إلى المغناطيسي الجنوبي، أما الثالثة فيقودها شاكلتون بنفسه ويكون هدفها هو القطب الجغرافي، إلا أن رفض سكوت بأن يستخدم شاكلتون قاعدته في هت بوينت حملته على تغيير خطته فأقام له قاعدة جديدة في "كيب رويدز" عند الطرف الغربي من جزيرة روس وعلى مسيرة يومين من هت بوينت.

قام شاكلتون ورفاقه بالعديد من الجولات، وحققوا الكثير من الدراسات الجيولوجية الهامة، بدءاً من سبتمبر١٩٠٨. وفي يوم ٢٩ أكتوبر انطلق شاكلتون يرافقه الملازم أدامز

والدكتور مارشال ورجل آخر يدعى وايلد صوب القطب على أربع زحافات تجرها خيول منشورية صغيرة، وقد حملوها معهم مئونة تكفيهم لمدة ٩٩ يوماً. ولقد قدر شاكلتون المسافة إلى القطب بحوالي ١٢٨٠ كيلو متراً. وأن الرحلة سوف تستغرق ١١٧ يوماً.

بدأت متاعب شاكلتون مع الخيول التي لم تتحمل تلك الرحلة الجليدية القاسية، فأضْطر إلى إطلاق النار على أحدها، ثم ما لبث أن قتل إثنين آخرين، ولم يبق معهم سوى حصان واحد، مما حملهم على السير مشياً على الأقدام.. وما لبثوا أن تسلقوا جبلاً أطلقوا عليه اسم "هوب" أي الأمل وكان ارتفاعه حوالي ٩١٤ متراً. ولقد كتب شاكلتون في مذكراته وهو على قمة ذلك الجبل ما يلي: "إنبثق أمام أعيننا من على قمة الجبل طريق منبسط نحو الجنوب، وكان يمتد أمامنا نهر جليدي عظيم يشق طريقه بين سلسلتين هائلتين من الجبال نحو الشمال، إنه أكبر نهر من نوعه في العالم، فهو بمثابة نهر أمازون آخر ولكنه متجمد! ويمتد حوالي مائة وستين كيلو متراً، ويصل عرضه إلى ثمانية وأربعين كيلو متر".

تابع شاكلتون ورفاقه سيرهم رغم الأهوال والمصاعب التي صادفتهم، صعدوا هضاباً بلغ ارتفاع إحداها ٣٠٤٨ متراً وهو ارتفاع يفت في عضد أقوى الرجال وتتداعى له عزائمهم! خاصة وأنهم كانوا يسيرون على أرجلهم.. وزاد الطين (أو بالأحرى الثلج" بلة، سقوط حصانهم الوحيد وسط إخدود جليدي عميق والأخاديد الجليدية مشكلة المشاكل هناك.. إذ تبدوا الأرض منبسطة بيضاء ناصعة أمامهم، وإذا داسوا على جزء منها، انهار كاشفاً عن فجوة عميقة يفوق عمقها مئات بل آلاف الأمتار أحياناً. ولقد راح العديد من المغامرين والمستشكفين ضحايا تلك الأخاديد.

كان شاكلتون ورفاقه يسيرون بما معدله ثمانية كيلو مترات في اليوم، وما أن هلت عليهم السنة الجديدة، سنة ١٩٠٩م حتى أصيب الجميع بصداع عنيف، وبينهم وبين القطب مسافة ٢٧٥ كيلو متراً.. وهبت عليهم عواصف هوجاء شديدة البرودة قضوا مكانهم خمسة أيام بلا حراك.. وكتب شاكلتون في مذكراته ما يلي "لقد حققنا أملنا، إننا ننظر جنوباً بمناظيرنا المقربة فلا نرى سوى السهل الجليدي الأبيض الممتد أمامنا مجرداً من معالم الحياة جميعها، والعلم البريطاني يرفرف ثقيلاً وسط العاصفة الثلجية التي نفذت إلى عظامنا".

ورغم ذلك إلا أن عزائمهم لم تَهِنْ بل إنهم واصلوا سيرهم نحو هدفهم المنشود القطب الجنوبي، ووصلوا على بعد ١٥٥ كيلو متراً فقط منه، أي على مسيرة ٢٦ يوم تقريباً، ولكن تأكد للجميع أنهم ماضون إلى حتفهم لا محالة. وكتب شاكلتون يقول "لقد استقر في أذهاننا أن الهدف الذي منينا بالخيبة في بلوغه يقع في هذا السهل ومهما يكن من أمر الحسرة التي أصابتنا، فإنا قد بذلنا غاية ما في وسعنا. إن النهاية تقترب ولا يمكننا أن نستمر أكثر من ثلاثة أيام أخرى فالضعف قد حل بنا سريعاً". ثم أعلن يوم ٩ يناير قراره الأخير بالعودة وهو في أشد حالات الحزن قائلاً "لقد أطلقنا سهمنا الأخير". وبدأت مسيرة أخرى هي بمثابة سباق مع الموت جوعاً دام سبعة أسابيع، إلا أنها إنتهت بسلام.

في الوقت الذي كان فيه شاكلتون يحاول الوصول جاهداً إلى نقطة القطب الجغرافي كانت مجموعة أخرى من رجال بعثته تحاول الوصول إلى القطب المغناطيسي، والقطب المغناطيسي هذا بخلاف القطب الجغرافي، يتغير مكانه من يوم إلى يوم.. كانت المجموعة بقيادة "ت. و. إدجورث دافيد"، أستاذ علم طبقات الأرض في جامعة سيدني، وكان في الحادية والخمسين من العمر.. وبعد مسيرة دامت أسابيع عدة واجهت فيها البعثة شتى

صنوف الضنك والشقاء، وصلت إلى نقطة القطب المغناطيسي. دلت عليه إبرة الميل المغناطيسي. وكتب قائد المجموعة يقول: "أقمت أنا ومكاي – أحد أعضاء المجموعة- سارية علم ثم حسرنا عن رأسينا ورفعنا علم بريطانيا في الساعة الرابعة والنصف، ونطقت بالكلمات التالية تنفيذاً لأوامر الملازم شاكلتون قائد البعثة: إني لأستولي باسم الإمبراطورية البريطانية على هذه المنطقة التي يقع فيها القطب المغناطيسي، ثم هتفنا بحياة جلالة الملك ثلاثاً".

غادر شاكلتون وأعضاء بعثته جميعاً القارة في الرابع من مارس سنة ١٩٠٩ عائدين إلى أرض الوطن، وكانت أعظم أخطاء البعثة على الإطلاق والتي حالت دون بلوغ هدفهم الأساسي وهو الوصول إلى القطب الجغرافي، استخدامهم الخيول بدل الكلاب، وسوف يؤدي تكرار الخطأ نفسه مرة أخرى إلى كارثة مروعة!.

سكوت والرحيل الأخير!

أعلن في لندن بأن شاكلتون كاد أن يحقق النجاح، ولكن لم يعرف أحد لماذا أخفق في الوصول إلى القطب، إزاء هذه الأنباء أعلن سكوت أنه سوف يحاول الوصول إلى القطب وأنه سوف يحقق ما عجز عن تحقيقه غريمه ومنافسه شاكلتون. وأثناء تجهيز لوازم بعثته الثانية والأخيرة، وصلته برقية من منافس جديد لم يحسب له سكوت أي حساب من قبل، وهو المغامر النرويجي "روالد أمندسن" يقول فيها "اسمح لي أن أخبرك بأنني متوجه إلى القارة القطبية الجنوبية.. التوقيع أمندسن".

كانت تلك البرقية بمثابة البيت الذي قتل المتنبي، وقصة هلاك المتنبي باختصار شديد أنه فر من معركة غير متكافئة دارت بينه وبين عدد من قطاع الطرق ويقال أنهم من غرمائه الذين هجاهم فأقذع في هجائهم، ولقد عيّر، خادمه الذي كان معه قائلاً: أتفر من النزال وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال المتنبي لقد قتلني والله هذا العبد، فعاد وقاتل وقُتل!

وبدأ السباق المحموم بين بطلي القطب الجنوبي، ولعل برقية أمندسن لسكوت كانت سبباً في استعجال الثاني في الإبحار ببعثة سيئة الإعداد والتخطيط..

بدأ سكوت رحلته الثانية على السفينة "تيرانوفا" من مدينة ملبورن في استراليا، وأقام قاعدته على بعد ٢٣ كيلو متراً شمال هت بوينت في الأول من يناير ١٩١١، بعده بأسبوع وصل غريمه الجديد أمندسن إلى خليج الحيتان عند الطنف الجليدي وأقام قاعدته التي أطلق عليها اسم "فرامهيم" على بعد ٨٠٠ كيلو متراً إلى الشرق من قاعدة سكوت. كانت بعثة سكوت تتكون من ٣٣ رجلاً و١٧ حصاناً منشورياً صغيرة الحجم، خذلت سكوت في

رحلته الأولى، كما خذلت شاكلتون من بعده. و٣٣ كلباً فقط من الكلاب السيبيرية المدربة على جر الزحافات. أما أمندسن المغامر المحترف والخبير بالمناطق القطبية فقد كانت بعثته تتكون من ثمانية رجال فقط و١١٨ كلباً!.

انتهى سكوت في يوم ١٧ فبراير من إنشاء مخازن للمؤن على الطنف الجليدي عند خط عرض ٢٩ ´ ٧٩ ° جنوباً، ولقد نفق لديه أثناء تشييد المخازن، ثمانية خيول وخمسة كلاب، ثم قام سكوت بتقسيم البعثة إلى ثلاثة مجموعات، كل مجموعة تضم أربعة رجال مع المعدات. وانطلق الجميع في ٣ نوفمبر سنة ١٩١١م بعد ثلاث سنوات بالضبط من بداية رحلة شاكلتون. واستخدموا الخيول في جر زحافاتهم ما عدا اثنتين فقط استخدموا فيهما الكلاب. وعندما وصل الجميع نهر بيرد مور الجليدي، أطلقوا الرصاص على الخيول الصغيرة لأنها كانت عبئاً عليهم، وأمر سكوت فرقة واحدة بالعودة، واضطر الباقون إلى جر الزحافات بأنفسهم. وعند منتصف المسافة بين المعسكر والقطب، طلب سكوت من الفرقة الثانية العودة ما عدا "بورز" أقوى رجال البعثة جميعاً بالبقاء معه، على الرغم من أن الخيمة الواحدة لا تتسع إلا لأربعة أفراد مع التموين. وأصبح رجال القطب خمسة فقط من أصل ١٢ انطلقوا منذ البداية، والخمسة هم: الرائد رويرت سكوت قائد البعثة، ادوارد ولسن، لورنس أوتس، إدغار إيفنز والملازم بورز الذي ضمه سكوت في رحلة الموت!

لم يبق على بلوغ القطب سوى ٢٨٢ كيلو متر، وأخذوا يجدّون في سيرهم رغم الوهن والضعف الذي أصابهم، ولقد ردوا ذلك إلى المشقة التي كانوا يكابدونها في جر الزحافات والرياح الباردة التي تعصف في وجوههم.. وبينما هم ماضون في سيرهم صوب الجنوب رأي بورز على حين بغتة علامة سوداء وسط الصقيع الأبيض، وكتب سكوت في مذكراته يقول: "واصلنا سيرنا فوجدنا أن تلك العلامة ما هي سوى عَلَمٍ أسود ربط في حامل زحافة فوق

خيمة صغيرة، وعثرنا في الجوار على بقايا مخيم وآثار زحافات على الجليد ومخالب كلاب وما أكثرها.. لقد عرفنا القصة الكاملة الآن، فقد سبقنا النرويجيون وأصبحوا هم أول من وصل إلى القطب".. وأضاف في اليوم التالي: "القطب؟! نعم لقد بلغناه في ظروف تختلف كل الإختلاف عما كنا نتوقع.. تبارك الله، يا له من مكان مرعب مخيف، لا يستحق ما لاقيناه في سبيله من ضنك دون أن نحظى بشرف السبق، وعلينا أن نناضل في سبيل العودة إلى بلادنا.. فهل يا ترى سيكتب لنا النجاح؟!".

وبدأت رحلة العودة بعد هذه الخاتمة البائسة، كان عليهم أن يقطعوا مسافة ١٢٨٠ كيلو متراً سيراً على الأقدام إلى رأس "إيفانز"، لقد شعر أولئك التعساء الخمسة أنهم لن يعودوا قط إلى بلادهم، فقد أصيب كل واحد منهم بعارض تجمدت يد إيفانز من شدة البرد حتى تساقطت أظافره، وسقط سكوت على الأرض وأصيب في كتفه، كما أصيب ولسن في ساقه، ثم في يوم ١٧ فبراير توفى إيفانز وقد شخص ولسن الطبيب وفاته بأنه أصيب بإرتجاج في المخ..

مضت بعد ذلك أربعة أسابيع والرجال الأربعة يجاهدون للوصول إلى مخيمهم، وهبت عليهم عاصفة ثلجية عنيفة هبطت معها درجة الحرارة إلى ما دون ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر، وأصيب أوتس بالتهاب في قدمه تحول إلى غرغرينا بفعل البرد ونصبوا خيمتهم إنتظاراً إلى أن تخف وطأة العاصفة، إلا أن أوتس جاهد حتى وقف على قدميه وقال لرفاقه ساخراً أو يائساً: "إني خارج وقد أغيب بعض الوقت!" ولقد أدرك الرجل نهايته، وحمله كبرياؤه على أن يخرج ليلقى حتفه في عين العاصفة بدلاً أن يكون عالة على رفاقه وهم في حالة يرثى لها. وكتب سكوت يرثيه قائلا: "كنا نعلم أن أوتس المسكين يسير إلى حتفه فحاولنا أن نثنيه عن عزمه رغم علمنا بتضحيته البطولية، وإننا لنرجوا أن نلقى جميعاً نهايتنا بمثل عزيمته ولا شك أنها قريبة!".

وقر في قلب سكوت ورفاقه أن نهايتهم آتية لاريب فيها، فأخذ يكتب عدة رسائل منها رسالة إلي الجمهور، ورسالة إلي زوجته وعدد من أصدقائه، وإلي أم بوورز وزوجة ويلسون. ولقد تذكر سكوت وهو يتهيأ لسكرات الموت واجبه الوطني نحو مواطنيه، فأخذ يشرح لهم الأسباب التي حالت دون تحقيق هدفهم وأدت بهم إلي تلك الكارثة. ومما كتب في هذا المجال: " لو كُتبتِ لنا الحياة لوجب عليَّ أن أروي من أخبار البلاء الذي عاني منه رفاقي وصبرهم على الشدائد وشجاعتهم ما يدمي قلب كل إنجليزي. ولا شك أن هذه المذكرات سترى هي وأجسادنا الهامدة قصتنا"

وفي يوم ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ كتب سكوت آخر كلماته: "كل يوم ونحن نتأهب للسير إلى مستودعنا الذي يبعد أحد عشر ميلا فقط، لكن العواصف خارج الخيمة تزمجر بكل شدة، ولا أرى أنه بقى لنا بصيص من أمل في تحسن الظروف، إلا أننا سنتجلد رغم ضعفنا الذي يزداد يوماً بعد يوم، وأن النهاية لا تبعد كثيراً". ثم أضاف "ولا أظن مع الأسف أنني أستطيع أن أكتب أكثر مما كتبت". التوقيع سكوت.

وتلاشت قواه وأخذ القلم يرتعش بين أنامله وتذكر عائلته وهو في النزع الأخير وأضاف هذه الجملة بعد توقيعه "نستحلفكم بالله أن تهتموا بعائلاتنا..."

يا لها من قصة حزينة.. لم ينسوا قبل وداعهم الأخير أن يلتقطوا آخر صورة لهم!... ولقد عثرت بعثة الإنقاذ بعد ثمانية أشهر على جثثهم ويوميات ورسائل سكوت حفظها الجليد كما وجدوا فيلمين تم تحميضهما وتظهير صورهما فيما بعد

أمندسن والمجد الموعود..

انطلق أمندسن مع فريقه يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩١١م. من قاعدته في خليج الحيتان التي كانت أقرب إلى القطب من قاعدة سكوت، على أربع زلاجات تجرها الكلاب وتحمل كل واحدة منها ما زنته ٨٠٠ كيلو غرام من المؤن تكفي لمدة أربعة أشهر، وقد ارتدى الجميع ملابس الأسكيمو الخفيفة والدافئة، وهذا أمر بالغ الأهمية في سباق السير الطويل. ولقد بلغت سرعة الكلاب حوالي سبعة كيلو مترات في الساعة.

كان أمندسن أكثر تنظيما من سكوت، فقد وضع على طول الطريق علامات بلغ عددها ١٥٠ علامة تحمل الاتجاهات والمسافات. وكان يقضي هو ورفاقه يومين في كل محطة من المحطات الرئيسية، يريح فيها الكلاب ويعيد ترتيب الأحمال

انقضت ثلاثة أسابيع على مغادرتهم معسكرهم في "فراهايم"، وهالهم منظر جبال شاهقة عظيمة.. ولقد تبين لهم بعد أن اقتربوا منها أنها تتصل بمجموعة الجبال التي تبدأ بالقرب من رأي أدير، وتمتد مسافة ٢٠٠٠ كيلو متر تقريباً في قوس عظيم من تكوين جيولوجي يطلق عليه علماء الجيولوجيا اسم الشرفة "*Horst*"، ثم صعدوا مرتفعات "أكسيل هايبرغ" التي تتوسطها أنهار جليدية أطلقوا عليها اسم ثلاجات الشيطان "*Devil's Glaciers*"، أما أكبر تلك الأنهار فأطلقوا عليه اسم الهضبة نفسها أي نهر أكسيل هايبرغ الجليدي.

وصلوا حتى ارتفاع ٣٠٤٨، ونصبوا خيامهم هناك، وقتلوا أربعين كلبا من كلابهم، إما لأنها أصابها الوهن، أو لأنها كانت أكثر من حاجاتهم. ولقد كتب أمندسن حول هذا قائلاً: "لقد كان هذا الأمر شاقاً علينا، ولكن لم يكن له بد، ذلك أننا قد اتفقنا على ألا يثنينا

شيء عن بلوغ هدفنا". وكانوا يأكلون لحم الكلاب التي يقتلونها وهو مما قوى من عزيمتهم! ولقد أطلقوا على مخيمهم بعد تلك الوجبة الدسمة اسم حانوت القصاب!.

في ٧ ديسمبر وصلوا خط العرض ٢٣´ ٨٨° جنوباً، وتجاوزوا أبعد نقطة وصل إليها شاكلتون من قبل، عند ذلك رفع أمندسن العلم النرويجي الذي أخذ يرفرف على إحدى الزلاجات حتى وصلوا القطب.

عند اللحظة التي رفع أمندسن فيها علم بلاده، كتب في يومياته يقول: "لم تمر بي خلال الرحلة كلها لحظة أثرت في نفسي مثل هذه اللحظة ، لقد طفرت الدموع من عيني، وكان العلم المنصوب هو الذي غلبني على أمري. ولم نستطع أن نتجاوز هذه البقعة دون أن نبدي أسمى ما نكنه من إعجاب بالرجل الذي رفع هو ورفاقه البواسل علم بلادهم في أقرب مكان للقطب ولأول مرة. ولا ريب في أن اسم السير أرنست شاكلتون سيظلْ يكتب دائماً بأحرف من نور في تاريخ الكشوفات القطبية الجنوبية".

هبت عليهم عاصة ثلجية شديدة من الجنوب الشرقي، إلا أنهم واصلوا السير حتى بلغوا خط العرض ٥٥´ ٨٩° جنوباً في ١٤ ديسمبر، وعند الساعة الثالثة ظهراً دلّت أجهزة قياس المسافات على أنهم قطعوا المسافة المقدرة للقطب كلها، وأنهم الآن عند خط العرض ٩٠ درجة جنوباً وهو قلب القطب الجنوبي الذي تمتد منه جميع خطوط الطول باتجاه الشمال. قضوا في ذلك المكان ثلاثة أيام، حيث قاموا بدورة في محيط دائرة قطرها عشرون كيلو متراً ليتأكدوا تماماً من نقطة القطب بعدها بدأ الاحتفال برفع العلم النرويجي على رأس خيمة صغيرة أعدوها لذلك الهدف. ونصبوا مع العلم قطعة قماش كتبوا عليها اسم "فرام" وهو اسم السفينة التي استعارها أمندسن للوصول إلى أنتاركتيكا والتي تعد الآن

جزءاً من المتحف الوطني النرويجي، وأطلق أمندسن على المكان اسم هاكون السابع ملك النرويج في ذلك الوقت.

كان وصول أمندسن إلى القطب في يوم ١٤ ديسمبر ١٩١١، جاء بعده سكوت والذي وصل القطب يوم ١٢ يناير ١٩١٢. وانتهت رحلة أمندسن يوم ٢٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد ٩٩ يوماً من بدايتها. ولقد بلغ طول الرحلة حوالي ٢٩٧٦ كيلو متراً.

لقد احتاط أمندسن خشية أن يقع له ولرفاقه مكروه، فترك مظروفاً لسكوت في خيمة القطب ضمنه رسالة إلى ملك النرويج.

رغم السبق العالمي الذي حققه أمندسن بوصوله إلى القطب الجنوبي أولاً وقبل أي إنسان آخر على مر العصور، إلا أنه لم يسلم من النقد بعد عودته ظافراً إلى وطنه بحجة أن النتائج العلمية التي تمخضت عنها بعثته كانت قليلة جداً!.. وهكذا حال (الخوالف) مع العلماء والمغامرين.. لا يفعلون شيئاً، وعندما يقوم غيرهم بإنجاز ما يبادرون إلى التهوين من شأنه أو انتقاده..

لم يكتف أمندسن بما حققه من مجد في قاع العالم،بل عاوده الحنين إلى المغامرة مرة أخرى، فأراد أن يحقق مجداً آخر في قمة العالم.. فقد اهتم بعد عودته إلى بلاده بالطيران فوق القطب الشمالي، واستطاع أن يعبر أجواء القطب الشمالي بمنطاد وكأن أول نرويجي يحصل على رخصة طيران، وحقق نجاحاً كبيراً سنة ١٩٢٦م بإجتيازه المحيط المتجمد إلى القطب الشمالي، كما أنه تمكن من الإبحار عبر المضيق الشمالي الغربي.. إلا أن حياة أمندسن انتهت نهاية مأساوية كغريمه الإنجليزي سكوت، بل إن سكوت يعتبر نسبة إلى أمندسن أفضل حظاً! لأنه تم إنتشال جثته وجثث رفاقه ودفنت في أرض الوطن إنجلترا في احتفال مهيب وبعد تكريم وضع سكوت في مصاف عظماء الإمبراطورية التي لم تكن تغيب

عنها الشمس.. بيد أن أمندسن قد ضحى بحياته عندما كان يحاول إنقاذ منافسه الإيطالي "نوبيل" الذي تاه أثناء رحلة استكشافية للقطب الشمالي في منطاد سقط بعد ذلك وتحطم وكانت مغادرة أمندسن مع طيار فرنسي في الثامن عشر من شهر يونيو عام ١٩٢٨م من مدينة "ترومسو". وكانت هي الرحلة الأخيرة، إذ أنه اختفى هو وزميله الفرنسي نهائياً منذ ذلك التاريخ ولم يعثر لهما على أثر حتى اليوم!!

اليابان على خطى الجبابرة

لعله من الواجب أن نشير إلى محاولة اليابانيين اليتيمة لاكتشاف القارة خاصة وأن أغلب المراجع قد غفلت تلك المحاولة في خضم الإنجازات العظيمة المتوالية للآخرين.

قاد المحاولة الأولى النقيب "نوبو شيراسي *Nobu Shirase*" عندما غادر مدينة طوكيو في الأول من ديسمبر من عام ١٩١٠م في رهط من المغامرين على ظهر السفينة "كاينان مارو *kainanmaru*" التي لم يزد طولها عن ٣٠ متر أي في حجم "سنبوك" وهو أحد سفن الصيد الصغيرة في الخليج، وكان وداع البعثة حفنة من طلبة المدارس وقفوا يتأملون أولئك المغامرين على سبيل الفضول.

ولقد عانى "شيراسي" الأمرّين في اقناع حكومته بجدوى أهمية البعثة! ولم يحصل إلا بالكاد ما يكفي لتسيير بعثة واحدة فقط من رئيس وزراء اليابان السابق في ذلك الوقت.

وبعد إبحار دام أكثر من ثلاثة أشهر واجهوا خلاله الأهوال، شاهدوا الأرض لأول مرة في السادس من مارس عام ١٩١١م، وحاولوا جاهدين النزول على الأرض إلا أن الجليد بدأ في تطويقهم من كل جانب، وخشي "شيراسي" أن يُصيبه ما أصاب السفينة "بلجيكا" خاصة وأنه لا يحمل معه من المؤن ما يكفي ويعين على قضاء الشتاء القاتل هناك فأصدر أوامره بالدوران حول الجليد، وعندما لاحت له فرصة التخلص من قبضته، أدبر بسفينته لا يلوي على شيئ ووجهته استراليا

وصل "شيراسي" إلى سيدني في الأول من مايو سنة ١٩١١م، وأقام مع بعض طاقم السفينة ريثما يأتيهم المدد من اليابان لمواصلة كشوفاتهم، ولقد تقطعت بهم السبل وعانوا من العوز والفاقة وأخذوا يتسولون طعامهم وهم في إنتظار المدد الذي ذهب ليأتي به بعض أفراد الطاقم، ولقد عطف عليهم البروفسور "ديفيد إيدجورث" الأستاذ في جامعة سيدني

وأحد أعضاء فريق شاكلتون لإكتشاف القارة في عام ١٩٠٧م. وهذا مما أتاح الفرصة مرة أخرى للبعثة للإبحار إلى القارة بعد تلقي العون اللازم من الاسترَاليين. ولقد كان "شيراسي". يأمل بوصول القطب، ولكن تناهت إليه أخبار السباق الحامي الوطيس بين أمندسن وسكوت وقارن إمكانياته المتواضعة جداً مع إمكانيات غريميه. فقنع من الغنيمة بوضع العلم الإمبراطوري على أية بقعة من القارة.

غادرت السفينة "كاينان ماري" ومعناها باللغة العربية رائدة الجنوب، ميناء سيدني في التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩١١م. ووصلت طنف رأس الجليدي في ١٦ يناير عام ١٩١٢م.، وأطلقوا على أحد خلجان الطنف الصغير اسم "خليج كاينان" تيمناً باسم سفينتهم الصغيرة. ثم شاهدوا بعد ذلك سفينة غريبة حسبوها في البداية سفينة قراصنة، ثم تبين لهم بعد الدنو منها ما هي إلا "فرام" سفينة المغامر الشهير أمندسن تنتظر عودته ظافراً من سباق القطب الشهير.

لم تحقق بعثة "كينان ماري" الكثير نسبة لما حققه الآخرون، اللهم إطلاق بضعة أسماء يابانية على بضعة مواقع وتلال، وتثبيت العلم الإمبراطوري الياباني ورقعة نحاسية تسجل وصولهم، إلا أنهم حققوا كل ما خططوا له عند مغادرتهم استرَاليا

عادت البعثة بعد ذلك إلى اليابان ، حيث وصلت يوكوهاما في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٢م بعد أن قطعت أكثر من ٤٨ ألف كم ، واستقبلهم الرأي العام استقبالاً صاخباً وعنيفاً لأنهم غادروا اليابان خلسة بسبب الدعم المتواضع جداً الذي حصلوا عليه.